مع رفلة أبو جمرة في صور (١٩٤٤)
أول شيوعي تعرفت إليه وأنا قومي عربي رومانسي فلسطيني الهوى

بلغت الخامسة عشر من عمري عندما تعرفت إلى المعلم رفلة. كنت عائداً إلى مدينتي صور من العاصمة بيروت حيث كنت أتابع دراستي في السنة التكميلية الأولى في مدرسة حوض الولاية. وكانت الظروف الاقتصادية الصعبة قد حالت دون استمراري في بيروت. فأدخلني والدي الشيخ أحمد إلى مدرسة الكاثوليك، لأن المدرسة الجعفرية التي كنت قد تخرجت فيها من الصفوف الابتدائية لم تكن قد أنشأت صفوفاً تكميلية. كان ذلك في عام ١٩٤٤. وكانت مدرسة الكاثوليك تقع في حي النصارى. وربما يعود سبب من أسباب تعرفي إلى المعلم رفلة كوني كنت تلميذاً في تلك المدرسة. أقول ربما لأنني لم أعد أذكر تفاصيل ذلك اللقاء الأول مع المعلم رفلة. وكان المعلم رفلة يعمل خياطاً رجالياً بالقرب من المنشية. وكان يعمل في محل حلاقة غير بعيد من محل خياطة المعلم رفلة الحلاق حسن عز الدين صديق رفلة الحميم.

في العام الذي تلا ذلك العام انتقلت إلى الكلية الجعفرية لمتابعة دراستي مع زملائي الأوائل فيها. وكنت قد أصبحت قومياً عربياً، لا بمعنى الانتماء القومي وحسب، بل بمعنى يتجاوز ذلك، أي بحلم تحقيق وحدة الأمة العربية بعد تحررها الكامل من السيطرة الأجنبية، وتحقيق تقدمها بالمعنى العام للكلمة، المعنى الذي لم تكن مداركي في ذلك الحين تستوعب مضامينه.

كان المعلم رفلة، كما قيل لي يومذاك أنه كان شيوعياً، بقصد تحذيري من الالتقاء به، كما لو أن الشيوعية مرض يعدي. وكان معروفاً عن رفلة صلابة موقفه في وتحمله كل أنواع الاضطهاد التي كان يتعرض لها من خصومه السياسيين ومن بعض زبانية السلطة والاقطاع. وكان له رفاق آخرون من النوع ذاته من البشر. كان بينهم استاذي في اللغة الفرنسية متري حلّاج وابنه حنا حلّاج. وكان معه أيضاً الحلاق الآنف ذكره حسن عز الدين وحسين الخشن وسميح الصعيدي ومحمود قدادو وجواد قدسي ابن الحاج قدسي بائع القماش المعروف. وكان معه ساعي البريد سليمان أبو زيد الذي أصبح فيما بعد استاذي باللغة العربية، بعد أن غادرنا أستاذنا وصديقنا إنعام الجندي لمتابعة عمله للتدريس في بيروت. وكان مع رفلة من شيوعي تلك الفترة أيضاً اثنان من جيراننا في منزلنا في حي الخراب، وهبه فرّان وشقيقه رضا. كان الشيوعيون كثيري العدد يومذاك ولم أكن أعرف منهم إلا من ذكرت أسماءهم.

أما فريقنا نحن القوميين العرب فكان مكوناً من عدد من التلاميذ، أذكر منهم محمد دكروب وإحسان قهوجي والأخوان سليمان وعباس الزيات وحسين شرف الدين وعلي حلاق وحسن محي الدين وعلي سلامة ويوسف رضا، والأخوين سليمان وكامل جهمي، ولاحقاً عدنان شرارة وآخرين لم أعد أذكر أسماءهم. وكنا نصادق، برغم الخصومة السياسية، أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي. لم أعد أذكر منهم إلا صديقي الدائم الحضور حسن مرتضى ومصطفى عز الدين وابراهيم حلاوة الفارع القامة.

وهل بإمكاني أن أنسى الوجوه الأدبية لتلك المرحلة؟ إنهم فيما أذكر الشاعر والأديب (ابن البادية) والشاعر زكي بيضون والد الشاعر والأديب عباس بيضون والمؤرخ جعفر شرف الدين أستاذي في اللغة العربية وآدابها، والشاعرة زهرة الحر وزوجها عبد الله الحر تاجر الأقمشة. والذاكرة برغم بعض حيويتها الباقية، لم تعد تحتفظ بأسماء آخرين من أصدقاء تلك الفترة من حياتي الدراسية في مرحلة التعليم التكميلي قبل أن أغادر مدينة صور إلى بغداد في أواخر عام ١٩٤٧.

وكان من غرائب تلك الفترة التي لا أزال أحار في تفسيرها، أنني أنا القومي العربي أقمت علاقة صداقة مع عدد من الشيوعيين، من دون أن أغادر موقعي، ومن دون أن أعتبر نفسي صديقاً سياسياً للشيوعيين. لكنني كنت أحبهم، وكنت أشعر أنني قريب منهم. وكنت أجادلهم في الكبيرة والصغيرة وفق ما كانت تسمح به إمكاناتي وبعض قراءاتي. وكان أقرب هؤلاء إلى قلبي وعقلي المعلم رفلة. وصادف أن شقيقي الأكبر مرتضى قد تعلم مهنة الخياطة وعمل بعض الوقت مع المعلم رفلة ثم مع معلم الخياطة سليم محفوظ، ومع عدد آخر من معلمي الخياطة، إلى أن استقر لفترة من الزمن في محل عبد الله الحر زوج الشاعرة زهرة الحز ووالد الكاتبة الصحفية ليلى الحر قبل أن ينتقل إلى العمل في بيروت في إحدى ثكنات الجيش الفرنسي أو البريطاني، لم أعد أذكر تفاصيل سيرته في تلك المرحلة.

كان المعلم رفلة، بالنسبة إليّ، منذ أن تعرفت إليه أول مرة حتى آخر لحظة من حياته إنساناً مختلفاً عن كثيرين ممن صادفتهم في حياتي، لم يكن فقط حامل قيم الشيوعية ومثلها وأخلاقياتها، بل كان نموذجاً للإنسان الذي يعرف كيف يتعاون مع الآخرين بمعزل عن علاقته الفكرية أو السياسية بهم، انطلاقاً من قيم لعله كان قد تلقاها من جهة ما قبل أن ينتسب إلى الشيوعية، أي قبل أن تتعمق هذه القيم في وعيه وفي سلوكه بفعل انتسابه إلى الشيوعية. لا أعرف ما هي الشروط الانسانية التي تجعل إنساناً في مستوى تلك القدرة على تحمل الصعاب والمتاعب والآلام، من دون أن يظهر منه أي تأفف، كما لو أنه مسيح ما مكلف بحمل آلام البشر. هكذا كان رفلة أبو جمرة كإنسان وشيوعي

صاحب قضية رسولية. ولا أبالغ إذا قلت أنه ظل على هذا النحو من ممارسته للحياة حتى آخر أنفاسه. والقليلون جداً هم الذيهن يعرفون دوره في العديد من المهمات الحزبية، لا سيما منها دوره في إنشاء "الحرس الشعبي" في أواخر عام ١٩٦٩ بقرار من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني الذي كنت مكلفاً بإنجازه في اجتماع دعيت إليه جميع مسؤولي منظمات الحزب في الجنوب عقد في منزل الرفيق محمود الأمين في بلدة عيترون. وكان هذا التنظيم هو أول تنظيم وطني أنشئ لمقاومة العدوان الإسرائيلي. وقدم عدد من الرفاق الشيوعيين حياتهم باسم هذا التنظيم في مقاومة العدوان الإسرائيلي لا سيما العدوان الذي وقع على الجنوب في مطالع عام ١٩٧٢. وكان الشهيد علي أيوب وهو الفلاح الشيوعي المناضل من أبناء بلدة عيناتا، أول شهداء المقاومة باسم الحرس الشعبي. إذ ظل يقاوم برشاشه حتى نفذت ذخيرته فتمكن منه الإسرائيليون الغزاة وأردوه شهيداً في أرض بلدته التي امتزج دمه الحر في ترابها الطيب.

لقد كان المعلم رفلة أبو جمرة، في سيرته التي أشير إليها، إنساناً ومناضلاً متعدد الصفات. وبحكم صفاته تلك صار المعلم رفلة مرجعاً لكل أهل مدينته صور. ولم يعد يعرف إلا بسم المعلم رفلة. كان يستقبل الأصدقاء والرفاق في محل الخياطة من دون انقطاع. وكثيراً ما كنت أتساءل، ترى من أين يأتي هذا الإنسان في الوقت الضروري لكي يمارس عمله، ومن أين يأتي بالضروري من الدخل لكي يمارس عيشه الكريم؟!

لم تنقطع علاقة الصداقة بيني وبين المعلم رفلة منذ أن تعرفت إليه حتى آخر أيام حياته. ورغم أن أوضاعي تغيرت كثيراً، ورغم أن تنقلاتي في العمل وفي المسؤولية تعددت، بعد أن انتميت إلى الشيوعية، وكان ذلك بعد تاريخ تعرفي إلى المعلم رفلة بأربعة إعوام، فإنني كنت أشعر أن عليّ أن أزور هذا المناضل الشيوعي الصديق والرفيق بين وقت وآخر. ولم تغب صورته من ذاكرتي، رغم فترات ابتعادي عنه في البلاد وخارجها. وكانت آخر زياراتي له يوم شاركت في توديعه إلى مثواه الأخير مع نفر كبير من رفاقه ومن أصدقائه ومن معارفه الذين كانوا كثيرين من مدينة صور، مدينته بالذات، ومن سائر مدن الجنوب وقراه. جاءوا يومذاك من كل الأمكنة ليحيوا في هذا الإنسان روحه الطيبة وثباته في مبادئه، وتميزه بأخلاق رفيعة ندر مثيلها حتى بين أكثر الشيوعيين التزاماً وارتباطاً بقيم الشيوعية وبمثلها. وهي القيم والمثل التي بقيت لنا، بعد خراب التجربة التي ارتبطت باسم مشروع ماركس لتغيير العالم وانهارت بسبب ما ساد فيها من عناصر خلل بنيوية. وهذه الصفات الرائعة التي اجتمعت في المعلم رفلة هي ذاتها التي جعلت منه أحد رموز مدينة صور، وأحد الرموز التي لا تنسى للشيوعي الحقيقي، ابن الأزمنة الجميلة الغابرة.